ذكرى الهجرة

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد مأمون الشناوى
وكيل الأزهر الشريف

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا .

أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان ، فاخذ فى أول الأمر يدعو إلى دين الله سرا ، واتخذ دار لأرقم مكانا للاجتماع فكان يوافيه فيها السابقون ممن آمن به فيبلغهم رسالة ربه ، ولم يزل على هذا الحال إلى أن نزل عليه قوله سبحانه : وأنذر عشيرتك الأقربين ، فجمع عشيرته وبشرهم وأنذرهم وقال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لا تموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو نار أبدا ، والله يا بنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، فلما سمع عمه أبو لهب منه ذلك أغلظ له فى القول وقال : يا بنى عبد المطلب خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه فان أسلمتموه ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم ، قال الله تعالى فى شأنهم :

وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۞ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ .

ثم أمر أن يدعو الناس كافة ، إذ أنزل عليه قوله عز شأنه :

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

فصدع أمر ربه ، ولم يدع وسيلة فى تبليغ الرسالة إلا قام بها ، فأغضب هذا قريشا عليه مع أنهم كانوا فيما بينهم يعترفون بالحق له ، ولكنهم يجهرون بما يكذبون به على أنفسهم وعلى الناس حتى رموه صلى الله عليه وسلم بالسحر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، وذلك كله حرصا على بقاء السيادة لهم ، ولقد نبههم إلى خطئهم النضر بن الحارث إذ قال لهم ، يا معشر قريش والله قد نزل بكم من ما أتيتم له بحيلة قط ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، وكان أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ، ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ولا تخليطه ، يامعشر قريش انظروا فى أمركم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم ، ولقد حاولوا أن يرجعوه بشتى الوسائل فقد قال له عتبة بن ربيعة ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا ، فلا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ، أقد أفرغت يا أبا الوليد ، اسمع منى : ثم تلا عليه آيات من سورة فصلت "السجدة" فلما قرأ قوله سبحانه :

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ .

استرحمه عتبة أن يشفق على قومه ، حتى إذا فرغ من تلاوة قوله تعالى :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ؛

سجد وقال له يا أبا الوليد قد سمعت ما سمعت فانت وذاك فلما لم يجدهم ما حاولوا فنعا لجأوا الى عمه أبى طالب ، وعرضوا عليه مثلما عرضوا على ابن أخيه وأنذروه بسوء العاقبة ، فقال له يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فى أمرك ، فابق علىّ وعلى نفسك ، فقال لعمه ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الدين حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته ، ثم استعبر وترك عمه ظانا أنه خاذله

فناداه عمه وقال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت والله لا أسلمك لشيء أبدا ، ولما لم تلن لهم قناته عمدوا الى السخرية والاستهزاء به واضطهاد أتباعه ، حتى لقد بلغ من أمرهم أن جاء عقبة بن معيط بسلا جزور ، فقذفه على الرسول وهو ساجد ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها حينما بلغها الخبر ، فرفعته ودعت على من وضع ذلك ، وأبو جهل ومعه أناس يسخرون ويضحكون ، فلما فرغ النبي من الصلاة قال : اللهم عليك بعمرو بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وقد استجاب الله دعاء نبيه فقتلوا جميعا يوم بدر ، بل بلغ من اضطهادهم أن قرروا مقاطعة محمد وعشيرته وكتبوا بذلك عهدا ، ووضعوه في جوف الكعبة ، فرأى عشيرته أن ينتقلوا الى شعب أبي طالب ، فمكثوا فيه ثلاث سنين حتى نفدت أقواتهم ، وأكلوا أوراق الشجر ، وكان بعد ذلك ما كان من هجرة بعض أصحابه إلى الحبشة ، ولما يئس صلى الله عليه وسلم من هداية قومه أخذ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج ، ويدعوهم إلى الحق الذي جاء به ، ويطلب منهم أن يحموه وينصروه ، وكان مما يتلا عليهم قوله عز وجل :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

ولم يشأ أبو جهل أن يتركه إذ ذاك . فكان يسير وراءه ويقول . يا أيها الناس لا تسمعوا منه فانه كذاب . فكان لتكذيب قومه له صلى الله عليه وسلم أثر كبير في أعراض الناس عنه ولم يستحسن دعوته إلا نفر من سكان يثرب فانهم أجابوه . ووعدوا بعرض دعوته على قومهم اذا رجعوا اليهم . وفي العام التالي حضر منهم عشرة من الخزرج . واثنان من الأوس فآمنوا بما جاء به . وعادوا إلى يثرب وعرضوا الدعوة الاسلامية على قومهم . وفي العام التالي حضر منهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وأسلموا . وبايعوه صلى الله عليه وسلم على مناصرته والذود عنه . ولو أدى ذلك الى فنائهم جميعا . فلما علم المشركون بهذه البيعة وخافوا سوء عاقبتها فكروا فيما يعملون من وسائل القضاء عليه .

فاجتمعوا فى دار الندوة . وقال أحدهم أن محمدا قد كان من أمره ما قد رأيتم . وأ. والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد أتبعه من غيرنا . فاجمعوا فيه رأيا . فأشار أحدهم بأن يحبسوه فى الحديد حتى يموت . فلم يقبل هذا الرأى لأنهم خافوا من اتباعه أن يثبوا عليهم وينتزعوه من بين أيديهم . ويغلبوهم على أمرهم . وأشار آخر باخراجهم ونفيه . فلم يوافق على هذا الرأى أيضا وحجتهم أن محمدا حسن الحديث . حلو المنطق . فلا بد اذا خرج أن يتبعه أناس يغزوهم بهم . وإذ ذاك قال أبو جهل . أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا فينا . ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا اليه . فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه . فانهم ان فعلوا ذلك . تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فيرضون منا بالدية . فوافقوا كلهم على هذا الرأى واختاروا عددا كبيرا من شبابهم القوى . للفتك بالرسول . فاجتمع هؤلاء الشباب ببابه صلى الله عليه وسلم وانتظروا حتى إذا نام فتكوا به ولكن الله سبحانه رد كيدهم فى نحرهم فأوحى إلى نبيه بما يبيت المشركون له من الشر . وأمره بالهجرة الى المدينة فاتفق عليها النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه .

ولما حان الوقت أمر النبى عليا أن ينام على فراشه . وخرج والقوم بالباب وهو يتلو من سورة "يس" فلم يره أحد منهم لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة . فلما أفاقوا من غشيتهم اقتحموا الدار . فلم يجدوا إلا عليا نائما على فراش ابن عمه "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ .

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقابل مع أبى بكر الذى أعد العدة لذلك من قبل . وكان هذا فى شهر ربيع الأول (وانما جعلوا مبدأ العام الهجرى المحرم لأنه أول السنة عندهم أو هو شهر الله ومنصرف الناس من حجهم) فلما أصبحا اختفيا بغار فى جبل ثور بأسفل مكة وبقى الرسول والصديق فيه ثلاثة أيام وثلاث ليال . وكان الرسول كلما رآى من صاحبه شيئا قال له : ما بالك باثنين الله ثالثهما لا تحزن ان الله معنا ، "إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أما المشركون فقد ثارت ثائرتهم وأخذوا يبحثون عن الرسول فى كل مكان و يقصون أثرهم . فلما بلغوا الغار اختلط عليهم الأمر ، وأحالوا أن يكونا قد دخلا هذا الغار وهذه حاله . ورجعوا خائبين . ولكن من شدة حرصهم على ايذائه جعلوا لمن يعثر عليه فيرده أو يقتله مائة ناقة .

ولما هدأت الحال خرج النبي والصديق من الغار وركبا الراحلتين اللتين أعدتهما من قبل وسارا فى طريقها إلى المدينة و بينما هما سائران . إذا بسراقة بن مالك يلاحقهما فقد أغراه ماأعده المشركون من المكافأة . ولكن فرس سراقة عاقت رجلاها الأماميتان فى الأرض ثلاث مرات . وإذ ذاك طلب من الرسول الأمان فأمنه ورجع . ووصل الرسول وصاحبه إلى المدينة فاستقبلا من المسلمين بالحفاوة العظيمة وبهذا دخلت الدعوة الاسلامية فى دور جديد أساسه الأخوة الدينية التى عقدها الهدى النبوى بين المهاجرين والأنصار فارتبطت بذلك القلوب . وتكونت بينهم وحدة قوية زلزلت بقوة إيمانها الشرك وعصفت به حتى أسقطت شرفاته . واجتثت جذوره . وطهرت جزيرة العرب من عبادة الأوثان . ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصارت كلمة الله هى العليا . وكلمة الذين كفروا السفلى . ثم تتابع الوحى بعد ذلك ينظم الشئون . ويبين الأحكام . ويوضح للناس طريق العز والسعادة فى الدنيا والآخرة . وفى الحق لم تكن الهجرة فرارا من التعذيب والتنكيل ولا خوفا من الايذاء والتقتيل . وإنما كانت لانجاح الدعوة الاسلامية وتبليغ الرسالة على أتم الوجوه وأكملها . ونشر رحمة الله بين العالمين .

أيها المسلمون : لعلكم تذكرون ماالاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون الأولون فى سبيل نشر الدين . وتركيزه فى النفوس وحياطته بكل ماأوتوا من حول وقوة . لعلكم تذكرون ذلك فتستيقظوا من سباتكم . وتنشطوا من عقالكم . وتعملوا على إعادة مجدكم ولينصرن الله من ينصره . ان الله لقوى عزيز .

مأمون الشناوى